النفحة المسكية في الرحلة المكية

بقلم: الأستاذ عباس العزاوي
عرض: الأستاذ فاضل عباس العزاوي

كانت الرحلات ولاتزال محل العناية والاهتمام الكبير عند الباحثين والدارسين، وعندنا من الرحالين من اكتسب شهرة عظيمة والرحلات على اختلاف أنواعها سواء منها العلمية أو الأدبية أو البلدانية أو غيرها تبين الحالة التي كان عليها القطر يومذاك.

والرحلات إلى العراق لاستطلاع ما فيه كثيرة جداً. وفي مُدوناتها مُتع وفوائد لا تحصى. وللعراقيين أيضاً رحلات إلى الأقطار المجاورة والنائية ليست بالقليلة. وهي مفيدة لنا ولتلك الأقطار على حد سواء.

ومن أهم تلك الرحلات رحلة ابن فضلان ورحلة ناصر خسرو ورحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ورحلة عهدي البغدادي، وهي رحلة أدبية مهمة جداً، إلا أنها مختصرة لم تتعرض لأكثر من الاتصال بالأدباء والعلماء، ورحلة الأستاذ الشيخ عبدالله السويدي[1]، ورحلات أبي الثناء الألوسي وأخرى كثيرة وهي في موضوعاتها وأبحاثها لا تقتصر على وصف البلدان ومشاهدة الآثار أو المخلفات المدنية، وبيان الحالات العامة المشهودة من الأقوام والنحل أو العقائد، وما يعدّ من ظواهر الحضارة، أو الدين، أو المجتمع أو العلوم والآداب، إلا أن ما يخص الثقافة منها أو يتناولها يعدّ من أجلّ هذه الرحلات، وان الشيخ عبدالله السويدي قد كتب رحلته هذه بوضع مهم جداً، فهو لم يقتصر على ذكر المنازل، والمشاهد، ووصف البلدان بل أكد على ذكر العلماء والأدباء ومجالستهم ووصف مجالسهم وثقافتهم، فكانت هذه الخصيصة بارزة في رحلته بل من أوضح مزاياها.

ذهب الأستاذ السويدي إلى مكة المكرمة للحج عن طريق الموصل ـ حلب ـ الشام ـ المدينة. فهو لم يسلك الطرق المألوفة المعتادة للعراقيين، بل مضى إلى الموصل وكان خروجه من بغداد في ٢٨ ربيع الأول سنة ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ م) ووصل الموصل في ١٥ ربيع الثاني، وخرج منها في ٢٧ منه فدخل نصيبين في ٦ جمادى الأولى من هذه السنة. ومنها سار إلى الرها في ٢٠ منه فهبط حلب في ٦ جمادى الآخرة. ثم خرج من حلب في ١٣ شعبان فوصل الشام في ٢٢ منه ولم يغادر الشام إلا في ٢٠ شوال من هذه السنة. وأخذ طريقه إلى المدينة المنورة فجاءها في ٢٥ ذي القعدة. وبقي فيها ٣ أيام ثم دخل مكة المكرمة في ٧ ذي الحجة سنة ١١٥٧ هـ (١٧٤٥ م).

وبعد أن أتم مناسك الحج عاد أدراجه فدخل المدينة في ٢ المحرم من سنة ١١٥٨ هـ ثم عاد إلى دمشق في ٥ صفر وغادرها في ٢٢ منه، فدخل حلب في ٥ ربيع الأول ومنها توجه إلى بغداد وختم الرحلة.

ورحلة السويدي هذه تسمى (النفحة المسكية في الرحلة المكية) وكان قد جعلها غير مقصورة على الرحلة فذكر قبل الدخول ترجمته ثم السبب الظاهري الذي أوجب هذه الرحلة وهو نجاته من يد نادر شاه الذي كان معروفاً بـ(طهماسب قولي). أعلن سلطنته في صحراء مغان سنة ١١٤٨ هـ وكان وقع تاريخ ذلك عند البعض (الخير فيما وقع)، وعند آخرين (لا خير فيما وقع). وتعرض في هذا الفصل لحصار بغداد وما إلى ذلك مما أوضحته في تاريخ العراق بين احتلالين.

وفي ترجمته لنفسه ذكر أنه ولد سنة ١١٠٤ هـ (١٦٩٢ م)(٢) وأخذ العلم عن أفاضل منهم:

١ ـ الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ محمود من أهل ما وراء النهر.
٢ ـ الشيخ حسين نوح مدرس المدرسة العمرية.
٣ ـ الشيخ أحمد بن سويد الصوفي. وهو عم المترجم لأمه وبه تسمى بالسويدي.
٤ ـ الشيخ سلطان بن ناصر الجبوري.
٥ ـ الشيخ محمد عقيلة المكي. أخذ عنه أيام إقامته ببغداد سنة ١١٤٥ هـ.

٦ ـ الشيخ محمد بن عبد الرحمن الرحبي المفتي ببغداد.
٧ ـ ابنه الشيخ أبو بكر الرحبي.
٨ ـ الشيخ حسين بن عمر الراوي.
٩ ـ حسين مرتضى آل نظمي.
١٠ ـ السيد درويش العشاقي.
١١ ـ الشيخ محمد بن عبد الرحمن الإحسائي.

وممن أخذ عنهم من علماء الموصل:

١ ـ الشيخ مصطفى الغلامي.
٢ ـ الشيخ الفتح الموصلي.
٣ ـ يوسف الموصلي.
٤ ـ سليم الواعظ الموصلي.

وغير هؤلاء من علماء بغداد والموصل. فلم يقف عند علماء بغداد وحدها. وقد فصّل ذلك في رحلته. وكأن هؤلاء العلماء لم يبردوا غلة التعطش في التعرف على العلماء والاتصال بهم فذهب إلى الحج واتصل في طريقه بعلماء كثيرين. والمهم أن يعرف ما عندهم ويبين ما يعد إصلاحاً فيؤخذ به، وفي هذا ما يشبه الرحلات العلمية لتدقيق المناهج وسيرة العلم، فلا نكتفي بما ينشر وبما يعرف من المؤلفات لدى الأقطار الأخرى، بل لا بد أن يتصل بالثقافة مباشرة دون إغفال المشاهد والمراحل ووصف البلدان وهذا ما فعله الأستاذ السويدي في رحلته هذه.

ومما لا ريب فيه أن بغداد كانت عاصمة العلم، يؤمها الأفاضل وعنها انتشر العلم وتمكن في الأقطار. فلما كتب على بغداد أن تصيبها الكوارث والنكبات دعت الضرورة أن يأخذ عمن أخذ عن العراقيين فكانت هذه الرحلة التي جمعت مطالب مهمة في الثقافة.

وممن شاهدهم في الموصل حينما وردها في ١٥ ربيع الأول سنة ١١٥٧هـ:

١ ـ واليها حسين باشا الجليلي.

٢ ـ علي أفندي مفتي الشافعية
٣ ـ مفتي الحنفية ولم يسمه. وقد ذمها
٤ ـ مفتي الحنفية السابق محمد أفندي.
٥ ـ سليم أفندي.
٦ ـ الحاج محمد العبدلي.
٧ ـ الحاج محمد ابن الشيخ حسين الغلامي.
٨ ـ الشيخ عبد العزيز.
٩ ـ الشيخ يعقوب.

وهؤلاء كلهم علماء باستثناء الوالي. وقد شاهد أثناء إقامته في الموصل كثيراً من معالمها وآثارها كتربة النبي ذي النون، وتربة النبي جرجيس.

ولما وصل إلى الرها كان فيها (الطاعون) فانقطع وكان وصوله إليها في ٢٠ جمادى الأولى سنة ١١٥٧ هـ وذكر ما فيها من مساجد ومدارس ومراقد وآثار. وانتقد ما هو شائع هناك من أن إبراهيم عليه السلام مدفون في الرها وبيّن أنه في كوثى من العراق. ورأى من العلماء محمد الخطيب وعالم الرها حسن المنصوري المعروف بـ(حليم زاده) المدرس بمدرسة كاتب العربية.

ثم دخل حلب في ٦ جمادى الآخرة، دخلها من باب الفرج تفاؤلاً ووصف المدينة خير وصف وأثنى على أخلاق أهلها وقال: «فيها من العلماء أساطين، ومن الفضلاء سلاطين، وفيها حفّاظ لكتاب الله ومجوّدون، وفيها مدرسون يقيمون العلم ويشيدون، والغالب عليهم من الفنون فنّ الحديث والفقه الشافعي، والتفسير، والمعاني والبيان، والنحو، ورغبتهم في العلوم العقلية والتفسير، والمعاني والبيان، والنحو، ورغبتهم في العلوم العقلية قليلة، إلّا أنهم يقرءونها تحصيلاً للكمالات. ولأهلها قدرة على الكلام وفطنة وقادة، لا عناوة فيهم في معاملاتهم ومحاوراتهم رضي الله عنهم وأرضاهم ...» اهـ.

وذكر ما بالغوا في إكرامه واحترامه، وأوضح مجالسهم، وذكر جماعة كبيرة من علماء

البلد، وهكذا لم يترك مجتمعاتهم العلمية والأدبية بل كان يؤمها وكأنه أرسل خصيصاً ليقدم تقريراً ضافياً.

وكان في الغالب يغشى مجلس الأستاذ محمد قزيزان ويستمع إلى دروسه لا سيما دروس التفسير، وهو رجل حسن الصوت جميل النغمة وله معرفة تامة بالألحان الموسيقية. ذكر الأستاذ السويدي أنه ما سمعه يلحن في إنشاده ولو بحركة ومن عادته ألّا ينشد إلا الرقيق من الأشعار. في بعض المجالس أنشد ميمية الشريف الرضي:

يا ليلة السفح هلاّ عدت ثانية   سقّي زمانك هطّال من الديم
ماضٍ من العيش لو يُفدى بذلتُ له   كرائم المال من خيل ومن نعم

وفي مجلس آخر أنشد تائية ابن الفارض.

وذكر العجائب عن السيد محمد الطرابلسي نزيل حلب، في التفسير وطريقة تدريسه وأنه كان يحضر دروسه أكابر العلماء يؤمون بيته يوم الأحد من كل أسبوع، يناقش في التفاسير أثناء تدريس البيضاوي، وينقد الحواشي، ويحقق ويراجع ويناقشه الحاضرون من العلماء. وللسويدي معه مجالس مناظرة، وفي هذا يتم احتكاك الآراء وتمحيصها ويحصل التدقيق العلمي، والمراجعات الأدبية.

وكان السيد محمد قزيزان يختم المجلس بإنشاد قصيدة يجعلها آخر القول مما يؤيد الميل الأدبي وقوته، وهل تقوم للعلم قائمة مع إهمال الوجهة الأدبية. وقد أنشد مرة ذالية ظافر الحداد:

لو كان بالصبر الجميل ملاذُه   ما سحّ وابل دمعه ورذاذه
مازال جيش الحب يغزو قلبه   حتى وهىٰ وتقطعت أفلاذه

وأنشد مرة بائية ابن الفارض، ومرة قول ابن الخياط الدمشقي:

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه   فقد كان ريّاها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فإنه   متى هبّ كان الوجد أيسر خطبه
خليليّ لو أحببتما لعلمتما   محل الهوى من مغرم القلب صبّه

تذكّر، والذكرى تَشُوق، وذو الهوى   يتوق ومن يعلق به الحب يُصْبه

ومما أنشد همزيّة البوصيري، وقول عبد الرحمن الموصلي:

إلى علياك تعنو الأنبياء   ومن نجواك يُقتبس الضياء

أنشد مرة:

كأنك بالأحباب قد جددوا العهدا   وأنجزت الأيام من وصلهم وعْدا
وعادوا كما كانوا عليه من الوفا   وقد أنعمت نعم وقد أسعدت سعدى
أمانيُّ لا تدنَي نوى غير أنها   تُعلِّل مِنا أنفاً مُلئت وجْدا

كما أنشد مرة:

وكم حزن أهدى سروراً لربه   كما الدوح يعلو شامخاً إن يقلم
أرى زهرة الدنيا وريحان غيّها   إذا ذبلا في دنية الحي ترتمي

وهذا الأدب ينفذ إلى أعماق القلوب، ومجموعته من خير المجموعات، ويعدّ أصلاً مهماً في معرفة التفسير ودقائق الآي، بل عدّه العلماء أصل العلوم ومن كان عارياً من الأدب لا يفيد ولا يستفيد لا من التفسير ولا من غيره مع أنها تحتاج أصلاً إلى اللغة، ولما أهملنا الأدب أضعنا المعرفة. وبعد إدراك الأدب يجعل حبل المرء على غاربه، فلا تخفى عليه خافية، ولا يستعضل معضلة. فالأدب المكين سلّم المعرفة الدينية في كافة علومها واللغة ومجاريها، والبلاغة وقوانينها والحكمة وضروبها..

ونرى من مراجعة الرحلة أن إجازات هؤلاء العلماء متصلة بعلماء العراق فأجازوا صاحب هذه الرحلة، وأجازهم أيضاً. وهذا هو التلقيح العلمي، بل إن ذلك ظاهرة من ظواهره، وحدث من أحداثه، يدل عليه دلالة واضحة.

والأستاذ السويدي في خلال إقامته بحلب أضافه الشيخ محمد العقاد فجاءه بقصّاص

قص بعض سيرة الظاهرة بيبرس، قال الأستاذ السويدي: ما رأيت أحفظ من هذا القصاص، إذ دمج أثناء القصة مقامة من مقامات الحريري وأبياتاً لابن هاني أولها:

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر

ومن المؤسف أن السويدي لم يذكر اسم هذا القصاص فقد جمعت حلب من الأدباء والعلماء والقصاص ما سجل لها الفخر بين الأقطار العربية، بل خلّد الأستاذ السويدي اسم السيد محمد قزيزان، وآخر ما نقل من إنشاده قول ابن الخياط:

هو الرسم لو أغنى الوقوف على الرسم
هو الحزم لولا طول عهدك بالحزم
تجاهلت عرفاني به غير جاهل
وللشوق آيات تدل على علمي
عشية جنّ القلب فيها جنونه
ونازعني شوقي منازعة الخصم

كما أنه في أيام إقامته بحلب كتب رسائل أدبية وأخذ إجازات وأخذت منه أخرى. وكأنه وجد في حلب غنية عن غيرها. وكل أيامه فيها توضح أدبه وأدب معاصر به الذي لم يتصل به العراقيون إلا قليلاً فظهر كما برز في حلب وذكر ما شغلهم من مسائل علمية. وبعد الحج عاد إليها فبقي فيها أياماً وذهب إلى بغداد.

كان قد دخل دمشق في ٢٢ شعبان وخرج منها في ٢٠ شوال ثم عاد بعد الحج اليها في ٥ صفر ١١٥٨هـ وأثنى على السواد الأعظم أو الطبقة الوسطى هناك. وذم البنكجرية، ووصف جمال الأهلين ونعت بعض العلماء بخير النعوت وذمّ الآخرين بأنهم أهل نقل لا أهل عقل ووصف حالة الوقف وعبث الأيدي به.

ولما عاد إلى دمشق مدح أمير الحج وهو (الحاج أسعد باشا العظم ابن اسماعيل باشا)

بقصيدة ذكرها في رحلته ومدح عمه سليمان باشا وأسرتهم. وأسعد باشا هذا هو صاحب (البيت الأثري)(٣) بناه بعد السويدي بمدة قليلة أي سنة ١١٦٢هـ وعن أهل الشام قال:

(وقد حصل لي إكرام كثير، وتوقير عظيم في دمشق. ومن عادتهم حسن الظن). وذكر ما رأى منهم فقال: (ولما خرجت من دمشق صعب عليّ مفارقتها ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لاتخذتها دار سكناي. وكل من رأى دمشق ودخلها وعرف أهلها صعب عليه مفارقتها).

ولعل الوقت قد آذن بالانتهاء فلم يتمكن من ذكر ما رأى بالمدينة المنورة أو بمكة المكرمة. وكان الشريف مسعود ابن الشريف سعد بها وهناك نرى رسل نادرشاه ومنهم السيد نصرالله العالم الكربلائي المعروف وما جرى عليه في تلك الأثناء.

• • •

الحواشي:

(١) تفصيل ترجمته في كتابي تاريخ علم الفلك ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ وتاريخ الأدب العربي في العراق ج٢ ص ١٢٨، ٢٠٥، ٢١١. والكتابان من مطبوعات المجمع العلمي العراقي.

(٢) وتوفي في ١١ شوال ١١٧٤هـ ـ ١٧٦١م.

(٣) أتم بناءه في سنة ١١٦٣هـ ويعد من بدايع الفن المعماري التي خلفها أسلافنا وهو يقع بالقرب من الجامع الأموي بدمشق. وهو اليوم متحف يؤمه سنوياً آلاف الزوار والسياح.